# من كتب الشرق والغرب

## وحدة العالم وحرية الشعوب

الف الروائى الفرنسى جول فرن قصة فى أوائل القرن التاسع عشر وسماها « الطواف حول العالم فى ثمانين يوماً » . واعتقد المسكين أنه روى إحدى الأساطير العجيبة ، وأخذ قراؤه هذه القصة مأخذ الخرافة التى تدعو المرء عند المطالعة إلى ترك الأعنة للخيال الخصب يسبح فى عالم الأوهام . ونرى اليوم أن جول فرن أخطأ فى التقدير وأن أوهام بنى زمنه أضحت دون الحقيقة بمراحل ؛ إذ قام المستر وندل ويلكى فى شهر أغسطس من سنة ١٩٤٢ برحلة سياسية حول العالم استغرقت خمسين يوماً قضى منها ثلاثين يوماً على الأرض والباقى فى أجواز الفضاء .

أما وندل ويلكى فهو أحد الشخصيات الأمريكية المعروفة فى محيط السياسة ، وقد كان رئيساً للحزب الجمهورى فى أمريكا وتقدم لانتخابات رئاسة الجمهورية فى عام ١٩٤٠ فخذله فيها المستر فرانكلين روزفلت . على أن هذا الأخير كان يطمئن إلى كفاية خصمه ويقدر مواهبه ، ولذا وكل إليه مهمة سياسية دقيقة فى ظروف خطيرة جد الخطورة ، إذ كانت أمريكا وقتئذ مشتركة فى الحرب وكانت انتصارات اليابان تتوالى بلا انقطاع بسرعة فائقة لا سيما بعد كارثة « بيرل هاربور » كما أن زحف الألمان فى أوربا وأفريقية كان ينذر بشر مستطير .

غادر المستر ويلكى أمريكا مزودا بارشادات الرئيس روزفلت قاصداً تقصى حقيقة الأحوال باتصاله الشخصى برجالات الحرب وقادة الشعوب فى مختلف الأمم الحليفة والمحايدة . فطاف باثنتى عشرة مملكة ، وزار طائفة من الحكام والقواد . ثم عاد إلى وطنه وتوفر على تأليف كتاب يضم مشاهداته وملاحظاته ومخاوفه وآماله وآراءه واقتراحاته لتوطيد سلم دائم يقوم على دعائم راسخة تقى الانسانية وبال حرب عالمية ثالثة قد لا تبقى ولا تذر تأمل المستر ويلكى طويلا فى مشاكل الدول المختلفة ، وأمعن فى فحص الأسباب التى تؤدى عادة إلى اندلاع نار الحروب منذ العصور الغابرة ، فتبين له أن طبيعة الانسان واحدة وغرائزه واحدة وأطماعه واحدة فى جميع بقاع المعمورة رغم بعد المسافات واختلاف الأمزجة والأهواء ، وتباين طبيعة الأصقاع والأقطار ، كما بدا له وهو يحلق فى الفضاء على متن طائرته . أن بلاد الله واسعة الأرجاء ، ولكنها متصلة الحلقات بعضها قريب من بعض ، لا يفصل بينها إلا طمع الانسان وبغضاؤه ، وأن العالم الذى نعيش فيه عالم واحد تقطنه شعوب مختلفة ولكنها كأعضاء جسم واحد إن سقم عضو منه تأثرت بهذا السقم بقية الأعضاء . لذلك خلع المستر ويلكى على كتابه عنواناً جميلا خلاباً « عالم واحد » One World وما كاد ينشر هذا الكتاب فى عام ١٩٤٣ حتى تهافت عليه جمهور غفير من القراء فى جميع أنحاء الأرض ، وقد نقل إلى بعض اللغات الأجنبية منها الفرنسية ، وبيعت منه ملايين النسخ فى الولايات المتحدة الأمريكية نظراً لمكانة واضعه وثاقب فكره ، وخطورة

المسائل التى تناولها بالبحث والتعقيب، ورجاحة الحلول التى وفق لها بعد التمحيص والتنقيب. ومما يبعث على الأسف حقاً أن المنية لم تمهل المستر ويلكى طويلا بعد وضعه كتابه إذ توفى فى العام التالى — ١٩٤٤ — فلم يقدر له أن يحيا ليلمس بنفسه ما سوف تحققه الأيام من آماله وأحلامه التى كشفها فى كتابه بشأن عالم ا د. ولعل الله أن يكوز قد أراد به خيراً.

والآن أعرض بعض مشاهدات المستر ويلكى عرضاً موجزاً، وأبدأ بالقول إنه لم يوفق فى كل ما عن له من ملاحظات، ولم ينج فى بعض الأحيان من الزلل؛ إذ قد سرد بعض وقائع خاطئة ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنه لم يطل المقام فى كل بلد حل به.

استهل وندل ويلكى رحلته بمصر، فاتصل ببعض الشخصيات العظيمة وتحدث مع أولى الأمر من المصريين وزار بعض رجالات الانجليز والأمريكيين بين قائد ووزير مفوض. ولا تهمنا أحاديثه الخاصة أكثر مما ذكره عن الشعب المصرى وعن حالة البلاد الاجتماعية والصحية والثقافية كما بدت له؛ إذ لم يخف عليه سوء الحالة الصحية فى مصر وتفشى الأمراض فيها تفشيا خطيراً بين بلهارزيا وتراكوما، ولم تخف عليه حالة الفقر وما يجره فى أذياله من جهل ومرض ودعة وتمسك بأساليب عتيقة فى التربية والزراعة والصناعة يرجع بعضه إلى سوء توزيع الثروة العقارية وبعضه الآخر إلى الاستعمار وشعور الشعب أنه ليس سيداً فى بلده. ولكن المستر ويلكى أخطأ بلا شك حين ذكر أن ليس بمصر فاطبة مدرسة وطنية يمكن لمصرى أن يفخر بها عدا مدرسة للبنات تديرها سيدة أمريكية لتعليم اليتيمات. ولعل مرشده لم يفطن لدعوته إلى زيارة جامعة فؤاد الأول على الأقل. وقد عاب المستر ويلكى على مصر عدم وجود طبقة متوسطة فيها إذ لم ير سوى أقلية مفرطة فى الثراء وأغلبية مفرطة فى فقر مدقع.

ثم ذكر أن ما راعه فى بلاد الشرق الأوسط التى مر بها تهافت الناس على سؤاله: «هل تنوى أمريكا الدفاع عن نظام يجعل بسياسة البلاد الشرقية خاضعة لرقابة دول أجنبية دون أى سبب اللهم إلا أنها تكبت بوقوعها فى نقط استراتيجية على مفترق الطرق الحربية والتجارية الهامة؟» وعلق المستر ويلكى فى كتابه على هذا السؤال قائلا: إنه يرى لزاما عليه من الوجهة المثالية الاعتراف بأن هذا النظام لا يستقيم مع المبادئ التى تدافع عنها أمريكا فى الحرب، وأنه كلما أمعنت الدول فى تقرير هذه المبادئ زادت حالة التوتر والهياج التى تهدد هذا النظام.

ثم غادر رحالتنا الشرق الأوسط ويمم شطر تركيا، فراعه فيها تقدمها الاجتماعى والصحى فى فترة وجيزة لا تعدو العشرين عاما. وأعجب بقوة الشعب التركى وعزمه على الوقوف موقف الحياد التام من الصراع الدامى الذى أنهك الدول الأوربية، ولكنه أظهر جهلا تاماً بعلم الجغرافيا حين ذكر أن عدد سكان تركيا ستون مليون نسمة.

وقد أفرد وندل ويلكى لروسيا السوفيتية ستين صفحة من كتابه ولذا لزم التحدث عنها فى شئ من الافاضة.

بدأ المؤلف وصفه بقوله إنه لم يمكث فى روسيا إلا خمسة عشر يوماً، وإنه لم تتأت له فرصة زيارتها من قبل، ولكنه قرأ عنها كثيراً، وسمع عنها أخباراً كثيرة متناقضة كل التناقض متباينة كل التباين. ولذا سره أن يرى بعينى رأسه بعض الحقائق عن هذا البلد العجيب الذى جعل العالم بأسره فى حيرة من أمره، وزاد سروره عندما علم أن الحكومة

السوفيتية منحته الحرية التامة فى التجول أينما يشاء وارتياد مايشاء من الأماكن سواء فى ذلك المصانع الحربية ، ومصانع الغزل والعزب الزراعية والمدارس والمستشفيات والمكاتب ، وخطوط القتال ، كما أتيح له ن يستفسر فى صراحة تامة عن أية ظاهرة تثير دهشه ، وأن يلقى مايروقه من الأسئلة لمرافقيه .

وقد أطال المستر ويلكى الحديث عن شجاعة الجندى الروسى وبسالته وحسن بلائه فى فنون الحرب الحديثة ، كما أشاد باخلاص الشعب وتفانيه فى الدفاع عن وطنه رجالا ونساء وأطفالا ، وأظهر إعجابه بالعمال الروس الذين يشتغلون فى المصانع الحربية والمدنية لاعداد الأسلحة والأغذية والملابس اللازمة لتزويد الجنود بكل ما يحتاجون إليه فى صراعهم الجبار مع العدو . ونوه بفضل هؤلاء العمال الذين دأبوا على عملهم لا يأبهون لأخطار الغارات ولا يكلون ولا يملون ، كما نوه بفضلهم فى نقل بعض المصانع من أسسها بكامل عددها وآلاتها من مدينة إلى أخرى كلما أوغل الألمان فى غزوهم ، ومنها مانقل مسافة تزيد عن ١٦٠٠ كيلومتر .

وقد دار بينه وبين شاب يافع يشغل مركز مدير الانتاج فى أحد مصانع الطائرات حوار طريف مفيد ، أنقله لأنه يلقى ضوءاً على النظام الاجتماعى فى روسيا السوفيتية وطرق المعيشة فى هذا البلد الذى ظل العالم فى جهل تام عما يحدث فيه أعواماً طوالا . بادره المستر ويلكى بالسؤال الآتى :

— ما النسبة بين أجرك بصفتك مديراً لانتاج هذا المصنع وأجر العامل العادى ؟

— أجرى عشرة أمثال أجر العامل .

— كنت أظن أن الشيوعية معناها المساواة فى الأجور !

— ليست المساواة ضمن المبادئ الاشتراكية المطبقة حاليا فى روسيا . ثم استرسل فى شرح هذه النقطة فذكر أن شعار الاشتراكية الستالينية هو : « من كل شخص حسب كفايته ، ولكل شخص حسب أعماله » وأن هذا الشعار سوف يتحول إلى : « من كل شخص حسب كفايته ولكل شخص حسب حاجاته » عند ماتتم المرحلة الشيوعية لتقدمهم . وأردف قائلا إنه حتى فى هذه المرحلة الأخيرة لن تكون المساواة الكاملة لازمة أو مرغوبا فيها .

— لعلك تدخر جزءا من إيرادك الضخم ؟

— نعم كلما أقلعت زوجتى عن الاسراف .

— وكيف تنتفع بما تدخره من المال ؟

— ابتعت منزلا جميلا بجزء من رصيدى

— وماذا تصنع بالجزء الباقى ؟

— اشتريت أيضاً منزلا بسيطا فى الريف أقضى فيه مع أسرتى أيام العطلة .

— وماذا تفعل بما يبقى لك من المال بعد ذلك ؟

— أشترى به سندات الحكومة وهى سندات لا تعطى حاملها ربحا أو فائدة .

— ولماذا لا تستغل نقودك فى أوراق مالية تأتى لك بفوائد رابحة ؟

— اتقصد يا مستر ويلكى أن أستغل رأس المال ؟ إن هذا محال فى روسيا ، وعلى كل فهو عمل ينافى مبادئى .

— إذن ما الذى يحفزك إلى العمل بهذا الجد ؟

— إنى أشرف على هذا المصنع ، وفى يوم من الأيام سوف أصبح رئيسا له . أترى هذه النياشين ؟ إنى فخور بها لأن الحكومة منحتنى إياها لجودة إنتاجى وربما يكافئنى الحزب فى يوم ما باسناد منصب حكومى رفيع إلى .

— ومن يعولك فى شيخوختك ؟

— إنى أعول على ما ادخرته من المال وإلا فالحكومة سوف تعولنى .

— ألا تتمنى ان تهيئ لأبنائك بداءة خيراً من بداءتك فى الحياة ؟ ألا ترغب فى إبعاد شبح العوز عن زوجتك إذا ما توفيت قبلها ؟

— هذه أفكار رأسمالية يا مستر ويلكى إنى بدأت حياتى عاملا ، وسوف يبدأ أولادى حياتهم مثلى . أما زوجتى فهى تعمل وسوف تدأب على العمل ما مهدت لها صحتها ذلك أما إذا عجزت عن العمل فالحكومة تعولها .

وهنا وجه إليه المستر ويلكى سؤالا طالما رددته الدول الغربية لتثبت أن نظام السوفيت لا يمنح الفرد حرية القول والفكر :

— افرض جدلا أنك تخالف نظريات الدولة السياسية أو الاجتماعية فهل لك سبيل لابداء آرائك والدفاع عنها ؟

عندئذ أنكر الروسى إمكان حصول مثل هذا الفرض وهز كتفيه ولم يجب . فأردف المستر ويلكى :

— أستخلص من موقفك أنك لا تتمتع بأية حرية !

هنا احتد الشاب وأجاب فوراً :

— أنت عاجز عن الفهم يا مستر ويلكى . إنى أتمتع بحرية لم يرها والداى طوال حياتهما إذ كانا فلاحين استعبدتهما الأرض فلم ينالا أى قسط من التعليم ، وإذا مرضا لم يجدا من يعنى بأمرهما . أنا أول شخص من سلالة أجدادى العريقة سنحت له فرصة التعليم والتقدم والعمل لانجاز فكرة وهذا ما أسميه الحرية . قد لا يعنى هذا الحرية فى نظرك ، ولكن لا تنس أن نظامنا يجتاز مرحلة التطور وسوف نحظى فى يوم ما بالحرية السياسية أيضاً .

والآن أعود إلى رحلة وندل ويلكى لأروى زيارته لاحدى «العزب الاجتماعية» . لقد تغير نظام الزراعة فى روسيا إذ صارت الأراضى الزراعية ملكا للدولة . أما هذه العزب فعلى رأس كل منها مدير ، ولكل عزبة الحق فى أن تستأجر من مخازن الحكومة الآلات الزراعية الحديثة وجميع أنواع المعدات الميكانيكية اللازمة لفلاحة الأرض فلاحة علمية على أن تدفع قيمة الايجار للحكومة بتسليمها حصة من المحصول ، وأما باقى المحصول فيوزع على أعضاء العزبة كل حسب أيام عمله . ولكل فلاح الحق فى أن يستبدل بنصيبه من المحصول أية سلعة يريدها من متجر قريب من العزبة ، كما له الحق فى بيع نصيبه إن أراد ، إلا أن الحكومة تشجع الفلاحين على أن يكون البيع لها مباشرة . وقد لاحظ المستر ويلكى أن لدى الفلاحين رصيداً من المال غير قليل وأن الغذاء لديهم وفير ، فخطر له أن يسأل بعضهم أيتمنون امتلاك قطعة أرض لأنفسهم ؟ فلم يفقهوا لسؤاله معنى وأجابوه أن أجدادهم لم يملكوا أرضاً فى حياتهم .

ثم ختم وندل ويلكى جولته فى روسيا بمقابلة المارشال ستالين ، فألفاه رجلا بسيطا هادئ الطبع شديد المراس لا يأبه إلا للحقائق ولا يسبح فى الخيال والأوهام ، ملماً بكل تفاصيل القتال وبكل ما يحدث فى روسيا وفى العالم الخارجى . وقد قال له ستالين ذات مرة فى سذاجة مؤثرة : « يا مستر ويلكى إنى نشأت نشأة فلاح فى مقاطعة جيورجيا ولا أعرف الكلام المنمق ، وغاية ما أستطيع أن أؤكده لك هو أنى أميل إليك كثيراً » . ثم قابل الضيف الأمريكى رهطاً من رجال روسيا المسئولين ، ذكرمنهم مولوتوف وزير الخارجية وفيشنسكى ولوزوفسكى مدير قسم الأخبار والمارشال فوروشيلوف وزير الدفاع الأسبق والسيدة ميكويان وزيرة التموين ورئيسة إدارة العلاقات الاقتصادية بين روسيا والبلاد الأجنبية ، وقد ألفاهم جميعاً رجالا مثقفين ملمين بالمشاكل الدولية إلماماً تاماً ، ولا يشبهون البتة لا شكلا

ولا لغة ذلك المظهر القبيح الذى يصوره الرسامون الهزليون للبلاشفة .

غادر وندل ويلكى روسيا الأوربية واستقل طائرته قاصداً أصقاع سيبريا — روسيا الآسيوية — المترامية الأطراف التى يغطيها الجليد فى أكثر شهور السنة لزيارة إحدى مقاطعاتها وهى جمهورية «ياكوتسك» الاشتراكية المستقلة الداخلة ضمن اتحاد الجمهوريات السوفيتية . أما هذه المقاطعة فيقطنها قوم ينحدرون من المغول فروا إليها أيام غزو جنكيز خان . وكان معظمهم فى الزمن السالف يتعيش من صيد الفراء والبحث عن مناجم الذهب ، لا يسكنون إلا أكواخا من الطين تشاركهم فيها بهائمهم ، وكانت المجاعات والأوبئة تفتك بهم فتكا ذريعاً حتى انقرضوا تدريجياً أو كادوا . والجمهورية ياكوتسك فى عهد القياصرة شهرة بالزهرى والسل والفراء ولذا جعلوها مأوى للمجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وللسجناء المنفيين لجرائم سياسية .

قدم الضيف الأمريكى عاصمة تلك المقاطعة على متن طائرته ، فألفاها مدينة جميلة استهوته لغرابتها ، فسأل رفيقه رئيس مجلس قوميسيرى الشعب : هل بالمدينة مكتبة عامة ؟ فقاده إلى مكتبة نظيفة واسعة الأرجاء مضاءة بالكهرباء تحوى خمسمائة وخمسين ألف مجلد على حين لا يربى عدد سكان المدينة على الخمسين ألفاً . وقد دلت إحصائيات المكتبة على أن عدد مرتاديها خلال التسعة الشهور الأخيرة نيف ومائة ألف شخص جاء بعضهم من المدن الريفية المجاورة . ثم استفهم الزائر عن الملاهى بهذه المدينة ، فدعاه رفيقه الروسى إلى مشاهدة مسرحية غنائية راقصة من نوع الأوبرا على مسرح فخم كامل المعدات ، فأعجب الضيف بالرقص والغناء إعجاباً عظيما . وسأل مرة أخرى عن نصيب الشعب من التعليم فى هذه الجمهورية النائية فأجابه الرفيق موراتوف حاكم البلد أن اثنين فى المائة فقط من سكان هذه الجمهورية كان لهم إلمام بسيط بالقراءة والكتابة قبل عام ١٩١٧ وأما الآن فقد انعكست هذه النسبة تماماً . ثم أردف مبتسما : «إنى تلقيت أوامر من موسكو تقضى « بتصفية » هذه البقية الباقية من الجهلة وهى اثنان فى المئة » . ثم طاف المستر ويلكى بدار السينما وهى دار مشيدة بالأسمنت المسلح على أحدث طراز . كما طاف بدار مركز الحزب الشيوعى بهذه المدينة فأبدى إعجابه ببنائها ونظامها ، حتى لقد حدثه رفيقه الروسى متباهياً : « لا يغربن عن بالك يامستر ويلكى أن هذه الجمهورية أنشئت فى عام ١٩٢٢ بعد أن أخمدت الثورة ، واليوم أصبحت ميزانية هذه الجمهورية ثمانين ضعفاً لما كانت عليه فى عام ١٩٢٢ ويشعر بهذا البون العظيم جميع السكان بقلبهم ومعدتهم . كانت مقاطعة ياكوتسك فيما مضى بقعة بيضاء على جميع خرائط العالم ، وأما اليوم فان مناجم الذهب فيها بلغت لوفرة إنتاجها شأواً عظيما وضعها فى المرتبة الثالثة من مناجم روسيا التى تنتج معادن غير الحديد . وقد عثر المستكشفون فى أرض هذه الجمهورية على ثروات معدنية جديدة ، منها الفضة والنحاس والرصاص ، كما وجدوا فيها آباراً للبترول . »

ولم يفت المستر ويلكى أن يشير إلى أهمية الدور الذى سوف تلعبه روسيا فى السياسة الدولية بعد الحرب ، فألح فى التعاون معها كى يستقر السلم . وأظهر إعجابه بتلك الدولة الفتية المتوثبة منوها بنجاحها الباهر فى إقامة نظام رائع للصحة العامة جعل من الروس قوماً أصحاء أشداء يعدون فى طليعة الأمم فى هذا المضمار ، فضلا عن انتشار التعليم بينهم انتشاراً عم جميع طبقات الشعب بلا تمييز بعد أن كان يتخبط فى ظلام الجهل الحالك أجيالا عدة . وقد أشاد المستر ويلكى كذلك بحب الروس لوطنهم وتفانيهم فى الذود عنه والتضحية

بحياتهم فى سبيل توطيد أركانه وإعلاء شأنه .

وختم حديثه عن رحلته قائلا إن روسيا أضحت اليوم أمة غنية قوية يجب أن يقام لها وزن فى عالم المستقبل . وشهد أنه رغم عدم ميله إلى النظام الشيوعى لا يسعه إلا الاقرار بأن هناك أشياء كثيرة فى روسيا تستحق الاعجاب ؛ ولذا فهو يحث الشعب الأمريكى على التقرب من الشعب الروسى لادراك عقليته إذ يرى أن أمريكا وروسيا فى الوقت الحاضر قوتان جبارتان لا تدانيهما فى قوتهما دولة ثالثة ، قوتان إن اتحدتا تمخض العالم عن سلم ثابت راسخ ، وإن تنازعتا تردى العالم فى كارثة فاجعة .

طال بى الحديث ولما أنته من سرد مشاهدات المستر ويلكى خلال رحلته حول العالم ، ويضيق على المجال لتناول جولته فى بلاد الصين الشاسعة التى عرج عليها وهو فى طريق الأوبة إلى الولايات المتحدة . ولئن فاتنى أن أتحدث عن الشرق الأقصى لا يفوتنى أن أشير إلى خاتمة الكتاب الذى أعرضه ، وهى خلاصة أفكار مؤلفه لما فيها من مغزى وعبرة ونصح .

عند ما أفاق العالم من ذهول الحرب العالمية الأولى ظن المتفائلون أنها آخر حرب يشهدها البشر فأغرقوا فى خيالهم الخادع ، ولم يعمل أحدهم شيئاً نافعاً للافاة وقوع كارثة أخرى . واتضح لذوى البصيرة النافذة من المفكرين أن الحرب الأولى كانت نزاعاً بين دول مستعمرة لم تفد منها الانسانية فتيلا ، فهى حرب لم تحمل فى ثناياها أى مبدأ جديد من تلك المبادئ السامية التى تتمخض عنها المثالية والتى تدفع الأمم إلى التقدم الفكرى والتحرر من الأوضاع العتيقة البالية التى لا تتمشى مع تطور الأذهان ، كالاستعمار والاستغلال الاقتصادى ، وهما صورتان بشعتان من صور الاستعباد الحديث فى القرن العشرين ، إحداهما استعمار خارجى والأخرى استعمار داخلى . ومن المشاهد فى التاريخ أن الأمم تخطو خطوات واسعة إلى الأمام فى شتى الميادين العلمية والاجتماعية والطبية بعد الحروب أو الثورات أو القلاقل ؛ لما ينجم عن هذه الأحداث من انقلابات شاملة فى تحديد القيم الروحية والعقلية . لقد قال كارل ماركس عن الثورات إنها « قاطرات التاريخ » أى إنها تجر وراءها التاريخ وتقذف به مسرعة فى أحضان المستقبل . فاذا ما أخفقت الحرب أو الثورة فى تقريب الانسان من مثله العليا ذهبت جميع التضحيات التى تلازمها أدراج الرياح ، وأصبحت الحرب أو الثورة حدثاً تاريخياً أجوف لا طائل تحته .

والآن أعود إلى الكلام عن الأهداف التى يتوخاها وندل ويلكى فى الحرب العالمية الثانية والتى يأمل أن تحققها حتى لا تكون الملايين من ضحاياها قد فاضت أرواحهم عبثاً . أما هذه الأهداف فيمكن تلخيصها فى كلمة واحدة موجزة وهى « الحرية » . ومن الحقائق المرة المؤلمة أن شعوب العالم تتشدق منذ الأزل بهذه الكلمة البسيطة الخلابة . والجميع يتحدث عنها ، ولكن بعضهم يتحدث عنها ليسلبها ، وبعضهم الآخر ليستردها بقوة السلاح إن لم يكن من ذلك مفر ؛ إذ لم يسجل التاريخ على قدمه أن دولة غاصبة أهدت إلى شعب مغصوب حريته على « طبق من الفضة » كما يقول الغربيون ليتناولها لقمة سائغة عذبة المذاق .

وقد جاء على لسان المستر ويلكى قول أرى أن أنقله لما فيه من سخرية . ولعل تلك السخرية حقيقة واقعة فيكون الأمر أدهى وأمر : « إنى لا أزال أخشى أن أرى هذه الحرب تدنو من نهايتها قبل أن تستبين الشعوب الأسباب التى دعتها إلى القتال

والآمال التى تعقدها على الفترة التى تعقب الحرب. » هذا ما يخشاه المستر ويلكى . وأما ما لا أخشى التصريح به فهو أن هذه الحرب الأخيرة إن هى إلا حرب استعمارية كسابقتها أفادت منها الدول المستعمرة كل الافادة ، ولم تغنم منها الشعوب المهضومة أى غنم إلا ماحاق بها من خسائر مادية فضلا عن خسائر الأرواح فى بعض الأحوال . وإلا فما الذى غنمته الهند مثلا من إقحامها فى هذه الحرب رغم أنفها ؟

لقد أبرز ويندل ويلكى هذه الحقائق سافرة ، وأثنى على الحريات الأربع أو الخمس وعلى ميثاق الأطلنطى وعلى كل العهود التى قطعتها على نفسها الدول الحليفة إبان المعمعة ، وحذر تلك الدول من العواقب الوخيمة التى تحيق بالعالم إن هى نكثت وعودها ، وقال تلك الجملة الرائعة « إن الحرية كلمة لا تتجزأ » . وذكر حديثاً أدلى به إليه أحد أرباب العقول الراجحة فى الصين بصدد حبوط المفاوضات التى أجرتها انجلترا مع الهند أثناء الحرب توطئة لمنحها نوعاً من الحكم الذاتى — تلك المفاوضات التى قام بها وزير التجارة الحالى فى بريطانيا العظمى السير ستافورد كريبس ، قال هذا الصينى للمستر ويلكى : « يوم أجلت مطالب الهند الشرعية للحصول على الحرية لم تهو انجلترا وحدها فى عيون شعوب الشرق الأقصى ، وانما هوت معها الولايات المتحدة أيضاً » .

ثم تناول الكاتب الأمريكى الحديث عن طموح شعوب الأرض قاطبة لنيل حقها الشرعى فى الحرية والاستقلال قائلا : « لقد أدرك العالم أن سيطرة شعب على شئون شعب آخر ليس هو الحرية ولا هو ما ينبغى الدفاع عنه بقوة السلاح . ففى أفريقية وفى الشرق الأوسط وفى كل العالم العربى وفى الصين وفى سائر بلدان الشرق الأقصى الحرية معناها إلغاء النظام الاستعمارى ، وسواء راقنا هذا الكلام أو لم يرقنا ، فهذه هى الحقيقة التى لا مراء فيها »

وليت المستر ويلكى استرسل فى دفاعه عن الحرية إلى النهاية الطبيعية التى يقودنا إليها المنطق السليم ، فيجزم بشدة أن الدول المستعمرة خليق بها أن تجلو عن البلاد التى تحتلها جيوشها على الفور أو بعد أن تضع الحرب أوزارها مباشرة . ولكنه وقف فى منتصف الطريق المؤدى إلى الحرية الحقة — وكأنه ندم على اندفاعه فى هذا التيار الحماسى الجارف — وعرض حلا لوضع حد للاستعمار لا يشبع ولا يقنع ؛ إذ اقترح أن تندمج الدولة المحتلة مع الدولة المستعمرة اندماج الماء بالراح أى اندماج بريطانيا العظمى مع البلاد المكونة لما يسميه الانجليز كومونولث . ولعله يخشى أن تخرج الأمم المحتلة فجأة من ظلام الاستعمار الموحش إلى نور الحرية الساطع فتبهر أنظارها أو يعلوها غشاء يجعلها تضل وتتنكب سواء السبيل ؛ فلهذا استصوب أن تسندها الدولة المستعمرة لئلا تتعثر فى حبوها وهى حديثة عهد بالاستقلال فتزل قدمها وتهوى إلى الحضيض . ومن الغريب أن المستر وندل ويلكى لم يلفظ كلمة « الاستقلال » وإنما كل ما جادت به نفسه السمحة لم يعد لفظ « الحكم الذاتى » . وهناك ، على ما هو معلوم ، دول تتمتع بالحكم الذاتى دون أن تنفصم العرى بينها وبين الدولة الراعية — أو الدولة الوصية كما يقال الآن فى لغة هيئة الأمم المتحدة — انفصاما كاملا . وما أبغض إلى النفس من أنصاف الحلول !

بعد أن فرغ المستر ويلكى من التحدث عن الاستعمار الخارجى ومجافاته للمثل العليا التى يأمل أن تحققها الحرب حتى لا يكتب لها الاخفاق كسابقاتها ، تناول موضوع الاستعمار

الداخلى أو الاستغلال الداخلى الذى لاتخلو منه دولة من الدول الرأسمالية ، وله نواح متنوعة ، منهـا ما هو خاص بأمريكا كمشكلة الزنوج فيها ومعـاملة الامريكيين لهم معاملة شاذة قاسية لا مسوغ لهـا إلا اختلاف لون البشرة ، ومنها ماهو عام يشمل الدول كافة . وقد قال المؤلف فى سياق الحديث عن هـذا النوع من الاستعمار أو الاستغلال: « نداؤنا بأهدافنا التى نرمى إليها من وراء هذه الحرب كشف لنا القناع عن ظلمنا . عندما نتحدث عن الحرية وتكافؤ الفرص لجميع الأمم تظهر لنا مفارقات مجتمعنا المضحكة ظهوراً جلياً لانستطيع معه سترها أو تجاهلها . إذا أردنا أن نتحدث عن الحرية وجب علينا أن ندرك هذا اللفظ على صحته، وهو أن لغيرنا أن يتمتع بالحرية كما نتمتع نحن بها سواء . فالحرية يجب أن تمنح لجميع داخل حدودنا وخارجها ، فنصون مثـلا حقوق الأقليات التى لا غنى للكثرة عنها ، إذ تعدالحافز القوى الذى يدفع عناصر كل أمة إلى المنافسة والابتكار فى شتى الميادين . »

وهنـاك حرية لا تقـل شأناً عن الحرية السياسية ، وهى حرية الدولة الاقتصادية ، فلكل دولة الحق كاملا فى توجيه اقتصادها الوجه الذى تراه ملائما لمصالحها دون التقيد بشروط أو اتفاقات اقتصادية تملى عليها ودون ربط عملتهـا قسراً بعملة أجنبية بحيث يصبح كل الغنم فى كفة والغرم فى الكفة الأخرى من الميزان . ويقترح المستر ويلكى فى هذا الصدد إلغاء الحواجز الجمركية التى تشل التجارة الدولية أو تعوق ازدهارها الطبيعى .

على أن هناك نوعاً من الاستعمار الداخلى لم يشر إليه الكاتب ، ألا وهو استغلال بعض طبقات الشعب للطبقات الأخرى أو استغلال الطبقة المالكة للطبقة العاملة استغلالا فاضحاً . كما أنه لم يتناول موضوع تحرير الفرد من العوز والجهل والمرض والبطالة ، وهو الأمر المعروف باسم «الحريات الأربع» . ولعل مرد تجنب المؤلف هذه النقطة الشائكة ماجاء على لسانه فى سياق حديث آخر : أنه لا يميل إلى المبادئ الشيوعية أو الاشتراكية . ولا غرابة فى ذلك إذ هو أحـد الأثرياء المعدودين فى أمريكا ، وأمريكا حصن منيـع للرأسمالية المتطرفة .

وخلاصة القول أن وحدة العالم توحى إلى المرء التضامن والارتباط الوثيق . وبلاد الأرض قاطبة تصبو إلى الحرية التامة بعـد أن أهدرت هذه الكلمة لفظا ومعنى أجيالا طوالا . والحرية إما أن تمنح للجميع أو تمنع عن الجميع ، إذ أصبحت الحياة لاتطاق فى عالم أقله سادة وأكثره عبيد . فان حققت الحرب هذه الأمانى التى تجيش بها الصدور ، ردد الناس قوله تعالى: « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم »، وإلا فعلى الأرض العفاء .

فؤاد وصفى أبو الذهب